سير أعلام النبلاء
منهجه وأهميته

عنوان الكتاب وتأليفه:

اختلف العلماء في تسمية الكتاب، فسماه الصفدي وابن دقماق: (تاريخ النبلاء)، وابن شاكر الكتبي: (تاريخ العلماء النبلاء)، والسبكي: (كتاب النبلاء)، وسبط ابن حجر: (أعيان النبلاء)، وسمّاه كلٌّ من الحسيني وابن ناصر الدين وابن حجر والسخاوي: (سير النبلاء) وجاء على عنوان مخطوطات الكتاب: (سير أعلام النبلاء) وهذا العنوان الأكثر دقة، ولذلك اعتمده محققو الكتاب.

وقد ألف الذهبي كتابه هذا بعد كتابه العظيم (تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام)، وقد جعل الذهبي كتابه (سير أعلام النبلاء) في أربعة عشراً مجلداً، راعى فيها التناسق من حيث عدد الأوراق، ولم يراعِ في الأغلب ناحية تنظيمية أخرى، وقد أفرد الذهبي المجلدين الأول والثاني للسيرة النبوية الشريفة، وسير الخلفاء الراشدين، لكنه لم يُعد صياغتهما وإنما أحال على كتابه العظيم (تاريخ الإسلام) ليؤخذا منه ويُضما إلى السير.

ترتيب الكتاب:

نظم الإمام الذهبي كتاب السير على الطبقات، فجعله في أربعين طبقة تقريباً، وقد استعمل كثير من المؤلفين هذا الأسلوب في تقسيم كتبهم، منهم الإمام ابن حبان البُستي المتوفى سنة ٣٥٤هـ حيث قسَّم الرواة في كتابيه (الثقات) و(مشاهير علماء الأمصار) إلى ثلاث طبقات هم: الصحابة، والتابعون، وأتباع التابعين، فصارت الطبقة هنا بمعنى الجيل.

ومنهم من جعل للطبقة تحديداً زمنيّاً، فجعلها بعضهم عشرين سنة، وجعلها بعضهم أربعين سنة، وهلمَّ جرّاً.

أما الإمام الذهبي فقد نظَّم مجموعة من كتبه على الطبقات إضافة إلى (السير) منها: (تذكرة الحفاظ) و(معرفة القراء الكبار)، و(المعين في طبقات المحدثين) وغيرها. فقسم كتابه (تذكرة الحفاظ) على إحدى وعشرين طبقة، وقسَّم (معرفة القراء الكبار) على سبع عشرة طبقة، وقسَّم كتابه (السير) على أربعين طبقة، وقسّم كتابه (تاريخ الإسلام) إلى سبعين طبقة، كل طبقة عشر سنوات.

والذي يتضح من دراسة كتب الإمام الذهبي أنه استعمل الطبقة للدلالة على القوم المتشابهين من حيث اللقاء، أي: في الشيوخ الذين أخذوا عنهم، ثم تقاربهم في السن من حيث المولد والوفاة.

طبيعة تراجم (السير) وأسس انتقائها:

كان الإمام الذهبي عالماً، واسع الاطلاع، غزير المعارف ولا سيّما في التراجم، وقد ألف في ذلك كتابه (تاريخ الإسلام) الذي احتوى على قرابة أربعين ألف ترجمة، وبذلك كانت لديه حصيلة ضخمة من التراجم كان عليه أن ينتقي منها ما يراه مناسباً لكتابه (السير).

وقد أورد الذهبي في (تاريخ الإسلام) جميع المشاهير والأعلام، ولم يورد المغمورين والمجهولين، أما في (السير) فإنه اقتصر على ذكر الأعلام وأسقط المشهورين، وقد استعمل الذهبي لفظ «الأعلام» ليدل على المشهورين جداً بعرفه لا بعرف غيره، ذلك أن مفهوم العَلَم يختلف من مؤلف لآخر.

ولم يقتصر الذهبي في (السير) على نوع معين من الأعلام، بل تنوعت تراجمه فشملت كثيراً من فئات الناس، من الخلفاء والملوك والأمراء والسلاطين والنقباء والقضاة والقراء والمحدثين والفقهاء والأدباء وغير ذلك.

ومع أن الذهبي قصد أن يكون (السير) شاملاً لجميع أعلام الناس إلا أننا وجدناه يؤثر المحدثين على غيرهم؛ لذلك جاءت الغالبية العظمى من المترجمين من أهل العناية بالحديث النبوي الشريف، وهذا يعد ظاهرة

طبيعية لما عرف من تربية الذهبي ونشأته الحديثية، وحبه لرواية الحديث وشغفه به.

وقد عمل الذهبي أن يكون كتابه شاملاً لتراجم الأعلام من كافة أنحاء العالم الإسلامي غرباً إلى أقصى المشرق، وهو شمول قل وجوده في كثير من الكتب العامة التي تناولت تراجم المسلمين، إذ كثير من الكتب كانت تعنى بترجمة أعلام بلدها أو منطقتها.

وقد حاول الذهبي في كتابه (السير) أن يوازن في عدد الأعلام الذين يذكرهم على امتداد المدة الزمنية الطويلة التي استغرقها الكتاب والبالغة سبعة قرون، فلم نجد عنده تفضيلاً لعصر على آخر في هذا المجال.

ووجد الإمام الذهبي بسبب سعة اطلاعه وتمكنه العظيم في الرجال مادة وفيرة احتوتها مئات الموارد التراجمية، فكان لا بد من أن ينتقي منها ما يتفق مع خطته في صياغة الترجمة من أجل أن لا يتضخم الكتاب أزيد من هذا التضخم الكبير الذي قدره له، وكان أحياناً إذا طالت عليه تراجم بعض الأعلام الكبار يحيل إلى مصادر أوسع تكون قد تناولت ذلك العَلَم بشيء من التفصيل نحو قوله في ترجمة عكرمة بن أبي جهل رضي الله عنه: استوعب أخباره أبوالقاسم بن عساكر، وقوله في ترجمة بلال رضي الله عنه: ومناقبه جمّة استوفاها الحافظ ابن عساكر.

صياغة تراجم (السير):

تختلف المادة الموجودة في ترجمة ما من تراجم (السير) عن الأخرى حسب طبيعة المترجم له وقيمته العلمية والأدبية، وكان الذهبي يُعنى في معظم التراجم بذكر اسم المترجم ونسبه ولقبه وكنيته ونسبته، ثم مولده أو ما يدل على عمره، ونشأته ودراسته وأخذه عن الشيوخ الذين التقى بهم وروى عنهم، ثم تلامذته الذين أخذوا عنه وانتفعوا بعلمه، وتخرجوا به، وما خلَّف من آثار علمية أو أدبية أو اجتماعية، ويبين بعد ذلك منزلته العلمية وعقيدته من خلال أقاويل العلماء الثقات فيه جرحاً وتعديلاً، ثم غالباً ما ينهي الترجمة بتحديد تاريخ وفاة المترجَم له، ويدقق في ذلك تدقيقاً بارعاً.

والذهبي له أسلوبه المتميز في صياغة التراجم وأساليب عرضها يختلف عن الموارد التي ينقل منها، وقد دفعه هذا الأمر في أغلب الأحيان إلى إعادة صياغة المادة التاريخية بأسلوبه الخاص، ولم ير في ذلك ضيراً طالما قد توخى الدقة والأمانة في نقل معاني الأقوال، ولكنه ألزم نفسه في الوقت نفسه بنقل النصوص بألفاظها في الحالات التي تستحق ذلك، مثل أقوال العلماء في الجرح والتعديل، ونصوص الكتب، والقطع النثرية، والقصائد الشعرية،

والمناقشات بين العلماء، فضلاً عن الروايات المسندة، ونصوص الأحاديث النبوية الشريفة.

والمتتبع لسيرة الذهبي يرى أنه قد حصَّل طرفاً صالحاً من العربية، في نحوها وصرفها وآدابها، كما أنه عُني عناية كبيرة في مطلع حياته بالقراءات التي تقوم في أساسها على علم تام بالعربية، وقد تعاطى الشعر، فنظم اليسير منه، لكل ذلك أصبحت لغته قوية جداً بحيث يصعب أن نجد في كتابه لحناً أو غلطاً لغوياً أو استعمالاً عامياً.

وهذا التمكن في العربية من العوامل المهمة التي تخرج ترجمة جيدة ينتفع بها.

المنهج النقدي عند الإمام الذهبي:

كان الإمام الذهبي من المعنيين بالنقد كل العناية بحيث صار يحتل مكاناً بارزاً في كتبه، وألف الكتب النافعة في ذلك، والذهبي إنما ينطلق في هذه العناية وذلك الاهتمام من تكوينه الفكري المتصل بدراسة الحديث النبوي الشريف، الذي يؤكد ضرورة تبيين أحوال الرواة، ودرجة الوثوق بهم بتمييز الصادقين منهم من الكاذبين، فسَحَبَه بعد ذلكَ على جميع كتابه، سواء أكان ذلك في تراجم المحدثين أم في تراجم غيرهم.

وقد اعتنى الذهبي في (السير) بكل أنواع النقد فلم يقتصر على واحد من مجالاته، فعُني بنقد المترجَمين، ونقد الأحاديث والروايات سنداً ومتناً.

نقد المترجَمين:

يقوم نقد المترجَم عند الذهبي عادة على إصدار حكم في الرجل وتبيان حاله جرحاً أو تعديلاً، ويكون ذلك في الأغلب بإيراد آراء الثقات المعاصرين فيه وأحكامهم عليه. وهو مع احترامه الشديد لأئمة الجرح والتعديل ومدحه الكثير لهم إلا أنه لم يتقبل آراء النقاد كلها على أنها مسلَّمات، بل كان يخضعها إلى ميزان النقد ويوجه الأقوال المتعارضة في ذلك عند وجودها.

نقد الأحاديث والروايات:

أكثر الإمام الذهبي من إيراد الأحاديث النبوية الشريفة في كتبه التاريخية، وقد عُني دائماً بالتعليق على هذه الأحاديث من حيث الإسناد والمتن ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

قال تلميذه الصفدي: وأعجبني منه ما يعانيه في تصانيفه من أنه لا يتعدى حديثاً يورده حتى يبين ما فيه من ضَعْفِ متنٍ أو ظلامِ إسناد، أو طعن رواته، وهذا لم أرَ غيره يراعي هذه الفائدة فيما يورده.

وكان نقده للروايات يتمثل بنقده للسند والمتن؛ فأما نقد السند فيكون عادة بتضعيف السند بسبب الكلام في أحد من رواته أو أكثر، أو تقويته استناداً إلى قواعد المحدثين، ويستعمل العبارات الدالة على قوة الإسناد نحو قوله: «إسناده صالح»، و«إسناده جيد»، و«رواته ثقات»، أو العبارات الدالة على ضعف الإسناد نحو قوله: «إسناده ليس بقوي» و«في إسناده لين»، و«إسناده ضعيف».. وهكذا.

ويؤدي هذا النقد إلى إصدار أحكام دقيقة تبين مرتبة الحديث يشير إليها الذهبي بقوله: «حديث صحيح»، أو «متفق عليه»، أو«حسن»، أو «ضعيف»، وهكذا.

وأما نقد المتن، فهو يقوم على نقد متن الرواية وتحليلها وعرضها على الوقائع التي هي أقوى منها، ومعارضتها بها، وقد عُني الإمام الذهبي في هذا النوع من النقد عناية بالغة من هذا الكتاب فردَّ مئات الروايات وأبطلها بنقده المتين وأسلوبه العلمي المتزن الذي ينبئ عن غزارة علم ونبالة قصد، وسعة اطلاع. فمن ذلك مثلاً تعليقه على الخبر الذي يشير إلى أن العباس بن عبدالمطلب أسلم قبل بدر وأنه طلب القدوم إلى المدينة وأن الرسول ﷺ طلب منه البقاء فأقام بأمره. فقال الذهبي: ولو جرى هذا لما طلب منه العباس فداء يوم بدر. وغير هذا كثير.

وبهذا يتبين فساد قول من قال: إن المحدثين قَصَّروا في نقدهم إسناد الحديث ولم ينظروا إلى متنه.

إنصاف الإمام الذهبي في النقد:

كان من منهج الإمام الذهبي نقل آراء الموافقين والمخالفين في المترجم ليقدم صورة كاملة عنه.. وقد وُفِّق إلى أن يكون منصفاً إلى درجة غير قليلة في نقده لكثير من الناس، وما كان عنده تفريق بين علماء المذاهب الأربعة، وما كان يرضى الكلام بغير حق ولا حتى نقله في بعض الأحيان.